

الفصل الأول

العلوم المساعدة

تمهيد - اللغات - الفيولوجيا - الخطوط - الوثائق - الأختام - الرنوك - النميات - الجغرافيا - الاقتصاد - الأدب - فنون الرسم والتصوير والنحت والحجارة - الفنون الموسيقية - التاريخ - طائفة من العلوم الأخرى - الارتحال والسفر .

المقبل على دراسة التاريخ وكتابته ، ينبغي أن يعلم من أول الأمر أنه مقبل على عمل شاق يتطلب الجهد والتضحية والصبر الطويل ، وأنه تازمه دراسة عميقة وتحصيل جدّي متنوع ، وشأن التاريخ في ذلك هو شأن سائر أنواع العلوم والمعارف . وأنواع المعرفة الإنسانية متداخلة متشابكة فيما بينها ، ولا يمكن أن يُدرس علم معين مستقلاً بذاته تمام الاستقلال عن سائر العلوم أو المعارف . فثلاً لا يستطيع المدارس أن يفهم القرآن الكريم دون أن يُحسن معرفة اللغة العربية وعلوم القراءات والفقّه والحديث الشريف والتصوّف والأدب والتاريخ والجغرافيا . . . وكلما ازدادت معرفته بهذه العلوم ازداد فهمه واستيعابه لمعاني القرآن الكريم .

وقل مثل ذلك بالنسبة لدراسة التاريخ ، التي هي متصلة بأنواع مختلفة من المعرفة الإنسانية . فن الضروري للمؤرخ أن يكون واسع الثقافة ، عارفاً بالعلوم المتصلة بدراسة التاريخ وكتابته . ويمكن أن تسمى العلوم اللازمة للمؤرخ - أو لغيره من الدارسين والباحثين بالنسبة لموضوع كل منهم - بالعلوم المساعدة أو العلوم الموصّلة . ويلاحظ أن العلوم المساعدة تختلف وتفاوتت - بالنسبة لدارس التاريخ - باختلاف العصر أو الناحية التي يرغب في دراستها والكتابة عنها . فالعلوم المساعدة اللازمة لدراسة تاريخ اليونان القديم تختلف عن العلوم المساعدة الضرورية لدراسة تاريخ عصر النهضة أو تاريخ الثورة الفرنسية الكبرى أو تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية .

واللغات من أهم العلوم المساعدة التي ينبغي أن يتزوّد بها الباحث في التاريخ . فلا بد أولاً من معرفة اللغة الأصلية الخاصة بالموضوع التاريخي المراد بحثه والكتابة عنه . لأن الترجمات التي تكفي لتحصيل الثقافة العامة لا تفي حاجة المؤرخ للتوفر على تفهّم الناحية التي يريد أن يتناولها . والراغب في الكتابة عن ناحية من تاريخ اليونان القديم لا بد له من معرفة اللغة اليونانية القديمة . والراغب في الكتابة عن موضوع من تاريخ العصور الوسطى في أوروبا يلزمه أن يكون عارفاً بلاتينيةها ، ومن يرغب في الكتابة عن ناحية من تاريخ عصر النهضة لا بد له من معرفة اللغة الإيطالية . وهكذا . وتفاوت أهمية اللغة الأصلية بالنسبة للموضوعات التاريخية المختلفة . فالراغب مثلاً في الكتابة عن ناحية من الثورة الفرنسية الكبرى تكون اللغة الأصلية بالنسبة له هي اللغة الفرنسية - لا اللاتينية - التي لا داعي للتعلم في دراستها في هذه الحال . ومن الأفضل له أن يُنفق جهده في تعلّم لغة أوروبية أخرى بعد الفرنسية . ولكن اللاتينية تُعدّ لغة أصلية ضرورية بالنسبة لمن يرغب في دراسة تاريخ الكنيسة حتى في العصر الحديث .

وكلما تعدّدت اللغات الأصلية القديمة أو الحديثة التي يُلم بها الباحث ، اتسع أمامه أفق البحث والاستقصاء . فعليه أن يكون حريصاً على دراسة ما يلزمه منها مهما كانت قديمة أو صعبة أو نادرة مثل اللغة المصرية القديمة أو اللغة الصينية أو العربية أو الفارسية أو الروسية . . . حتى يستطيع الرجوع إلى الأصول والمصادر التاريخية الأولى ، وهذه كلها أدوات أساسية لا يمكن بغيرها السير قدماً في سبيل البحث التاريخي العلمي .

وكذلك ينبغي على الباحث في التاريخ أن يلم بلغة أو أكثر من اللغات الأوروبية الحديثة الشائعة الاستعمال كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والأسبانية . وإن قصر في معرفة بعضها فيمكنه أن يواظب على دراستها ، حتى يبلغ المستوى الذي يتيح له فرصة الاستفادة بها . وهذه لغات غنية بآثارها الأدبية والتاريخية ، ويجتذب انتشارها كثيراً من الباحثين في التاريخ إلى التأليف فيها ، ولا يجوز أن يفوت المؤرخ الثمرات التاريخية التي تنتظمها هذه اللغات كلها أو بعضها .

وقد تبدو مسألة تعلم اللغات - الأصلية أو العامة - أمراً عسيراً ، وربما تجعل أشجع الناس يتردد في الإقدام على دراستها . ولكنها دراسة أساسية لِمَنْ يرغب جدياً في دراسة التاريخ وكتابه . ويحسن بالدارس أن يبدأ في دراسة ما يلزمه من اللغات في أثناء وجوده بالمعاهد النظامية . وليس هناك ما يمنعه من أن يتعلم لغةً ما ، في أى وقت شاء من حياته . وإن دراسة سنتين في إحدى اللغات الجديدة على الباحث كافية كأساس مبدئى يستمر بعدها في المزيد ، ويا حبذا لو أمكنه قضاء بعض الزمن ، وفي فترات متتابعة ، في بلد تلك اللغة الجديدة عليه .

والفيلولوجيا (philology) - فقه اللغة - من العلوم المساعدة الضرورية لدراسة فروع كثيرة من التاريخ . وكلما بَعُدَ العصر الذى هو موضوع الدرس ازدادت أهمية الفيلولوجيا ، إذ لا بد لفهم النصوص التاريخية من معرفة لغة ذلك العصر التاريخى المعين . وليست اللغة علامات جبرية أو أرقاماً حسابية تُستخدم كما في العلوم الطبيعية للدلالة على معانٍ وكميات محددة ، ولكن اللغة كائنٌ " حتى ينمو ويتغير ويتطور تبعاً لظروف المكان والزمان ، ولتغير الإنسان ، واختلاط الثقافات . وفي بعض الأحيان قد يدل اللفظ اللغوى على معنى محدد تماماً ، كما يمكن أن يدل اللفظ اللغوى على معانٍ نسبية أو متغيرة أو متضادة ، وقد تدل كلمة واحدة على معانٍ متفاوتة أو مختلفة باختلاف استخدامها عند كاتب بعينه . وتبدو هذه الظاهرة شديدة الأهمية في دراسة التاريخ - كما في غيره من الدراسات وعلى الأخص في الدراسات الأدبية . وبذلك فلا بد من معرفة اللغة التى يقرأ فيها دارس التاريخ ، فضلاً عن الدراية بما نال ألفاظها من المعانى المتفاوتة أو المختلفة ، حتى لا يفسر ما يقرأ على غير حقيقة .

وعلم قراءة الخطوط (paleography) من العلوم الأساسية لدراسة نواح كثيرة من التاريخ ، منذ أقدم العصور حتى أزمان متأخرة . وتوجد أنواع مختلفة من الخطوط الشرقية تبقى كالطلاسم حتى يتعلمها الباحث ويتدرب على قراءتها . ودراسة هذه الخطوط تحفظ له الوقت وتُجنبه الوقوع في كثير من الخطأ . وتتضح أهمية هذه الدراسة في فروع عديدة مثل تاريخ مصر القديم ، وتاريخ بلاد العرب قبل الإسلام ، وتاريخ اليونان ، وتاريخ الرومان ، وتاريخ العصور الوسطى ، والتاريخ الأوروبى

الحديث حتى جزء من القرن السابع عشر ، وتاريخ الشرق الأدنى حتى القرن التاسع عشر ، وذلك بالنسبة للغات التي تتعلق بهذه الموضوعات . أما بعد ذلك فتصبح الخطوط واضحة مقروءة .

ولقد نَمَتِ الخطوط العربية — مثلاً — وتطورت وكتبت بأشكال مختلفة .
ففيها الطومار^(١) . ومنها النسخي والرقعة والثلاث والكوفي والفارسي والمغربى والغبار^(٢) .
وتوجد أنواع لكل من هذه الخطوط يحتاج قراءة بعضها إلى التعليم والتدريب . وفي الشرق الأدنى العثماني — حيث كانت اللغة التركية العثمانية تُكتب بالحروف العربية — كُتبت الوثائق العثمانية بعدة خطوط ، مثل الخط الديواني^(٣) ، وخط القيرمه^(٤) .
وتستلزم قراءة هذين الخطين تعليماً خاصاً . وخط القيرمه مثلاً خط معقد كثير الزوايا والثنايا ، ويمكن أن تُكتب به معلومات كثيرة في حيز ضيق ، فضلاً عن الأرقام الخاصة به . ولقد أوجده العثمانيون لتحرير الشؤون الإدارية والمالية . ولكي يحيطوا محفوظاتهم بالكتمان والسرية .

ومجموعات وثائق دار المحفوظات المصرية بالقلعة — مثلاً — تحتوي على آلاف الوثائق عن تاريخ مصر المالى والإدارى فى العهد العثمانى وفى عهد محمد على وخلفائه ، وأغلبها مدون باللغة التركية ويخط القيرمه . وكذلك توجد مجموعات لا تُحصى من الوثائق المدونة بهذا الخط فى تركيا وفى كثير من المناطق التى خضعت للإمبراطورية العثمانية^(٥) . وستظل معلوماتنا عن هذه القرون الطويلة قاصرة وناقصة حتى يوجد مَنْ يتعلم قراءة خط القيرمه ، ويتمكن من دراسة ما تتضمنه مخطوطاته من المعلومات

(١) الطومار نسبة إلى قلم الطومار وكان يكتب سلاطين مصر بهذا الخط علاماتهم على المكاتبات ومناشير الإقطاع .

(٢) سُمى الغبار كذلك لدقته بسبب الصعوبة فى رؤيته وكأنه ذرات الغبار . وبه كتبت بطائق الحمام الزاجل ويسميه بعضهم قلم الجناح .

(٣) الخط الديوانى من الخطوط العثمانية وكتبت به الأوامر السلطانية والفرمانات والإنعامات .

(٤) قيرمه من قيرمق التركية بمعنى اثنى والتكسير ، وشاع استعمال هذا الخط فى مصر ابتداء من

القرن ١١ هـ .

(٥) توجد مثلاً بالمكتبة الظاهرية فى دمشق مجموعة من الوثائق مكتوبة بخطى الديوانى والقيرمه

وترجع إلى القرن ١١ هـ . وما تناوله مسائل تتعلق بتاريخ فخر الدين المعنى الثانى أمير لبنان .

على مدى سنوات طويلة *

ونجد الخطوط الأوروبية - مثلاً - قد نَمَتَتْ وتطوّرت واختلفت من عصر إلى آخر ، وطرأت على كتابتها تغييرات مستمرة على الحروف الصغيرة وعلى الحروف الكبيرة ، ونشأت خطوط خاصة في أوقات معينة ، ووجدت اختصارات لبعض الألفاظ ، مثل كتابة الجزء الأول من الكلمة أو من أجزائها . وأحياناً وُضعت علامات فوق الحروف للدلالة على كلمة ما . فلا بد من دراسة الخطوط اللازمة للباحث في التاريخ ، حتى يمكنه الرجوع إلى الوثائق التي دُوِّنت بها .

* كان زميل الأستاذ محمد محمد توفيق المتخرج في كلية الآداب بجامعة (القاهرة) في سنة ١٩٣٢ ، كان يعمل كفهرس و مترجم للوثائق التركية بدار المحفوظات المصرية بالقاهرة في أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات من القرن الحالى ، وقد كتب في مجلة الهلال عدد مايو ويونيو ١٩٤١ مقالا عن « الحلقة المفقودة في وثائق تاريخ مصر الحديث » قدم فيه موجزاً عاماً عن مضمون هذه الأصول التاريخية . وكذلك نشر كتيباً عن « إلغاء نظام الالتزام في عهد محمد على الكبير » ، في القاهرة سنة ١٩٤١ ، ونشر في الوقت نفسه ترجمته بالفرنسية ، وقد قام بالترجمة الأستاذ إبراهيم المويحيى الذى كان يزايله في العمل بدار المحفوظات المصرية بالقاهرة وقتئذ ، واعتمد في ذلك على الوثائق المحفوظة في تلك الدار . وقد كان للأستاذ محمد توفيق الفضل في اشتراكنا معاً في كتابة فصل بعنوان « تاريخ مصر في العهد العثماني (١٥١٧ - ١٧٩٨) » نشر في كتاب « المجلد في التاريخ المصرى » في سنة ١٩٤٢ ، والذي سيأتى ذكره بعد . وقد وضع رسالة بعنوان « مصطلح وثائق تاريخ الحكم العثماني في مصر » مع دراسة خط القيمه وكتابة مشق له ، فضلاً عن قاموس خاص بمصطلحات الموضوع ، وذلك بها درجة الماجستير في الآداب من كلية الآداب بجامعة (القاهرة) في سنة ١٩٤٣ . ولم يوفق الأستاذ محمد محمد توفيق إلى نشر هذه الرسالة . ولظروف خاصة ، ربما كان من بينها عدم تقدير الجامعة والجهات المعنية بالدراسات التاريخية لهذا النوع من الدراسة ، كف عن متابعة دراسته ، وعاش في شبه عزلة عن العالم ، وعكف على دراسة الشعر وقول القريض . وقد نحى فيه منحنى شعراء العصر الجاهلى . ومن مؤلفاته في هذا الصدد قصيدة « المعلقة الإسلامية في تاريخ الكعبة والمسجد الحرام » ونشرت بالقاهرة في سنة ١٩٥٥ . وله قصيدة لم تنشر وتقع في أكثر من ألف بيت عن « نهر النيل » ، وقد قرأناها معاً غير مرة . وخرج من عزله بعض الشيء منذ حوالي تسع سنوات ، تولى في أثنائها تدريس شيء من اللغة التركية ، و شيء من الوثائق العثمانية في كليتي الآداب بجامعة القاهرة وغيره . وكان يفد عليه من وقت لآخر بعض المشتغلين بدراسة التاريخ ، وأخص بالذكر منهم استانفورد شو الأمريكى الذى زار مصر والشام وتركيا خلال ١٩٥٥ - ١٩٥٦ - ١٩٥٧ ، وأفاد من علمه وخبرته بالوثائق العثمانية في مصر ، في سبيل إعداد رسالته عن « النظام المالى والإدارى وتطور مصر العثمانية من ١٥١٧ إلى ١٧٨٩ » والتي نال بها درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة برنستون في ولاية نيوجيرسى بالولايات المتحدة الأمريكية ، ونشرتها تلك الجامعة في سنة ١٩٦٢ . وقد ذهب الأستاذ محمد محمد توفيق منظم الوثائق المترجم المفهرس الشاعر الرقيق المرفه الحس الدمث الطبع الونى الأمين - ذهب إلى بارتنه في يونيو سنة ١٩٦٣ ، تاركاً فراغاً لا يعوض في علم الوثائق العثمانية وفي عالم الخلق السامى والدوق الرفيع .

وتوجد أحياناً وثائق أوروبية - أو غير أوروبية - كتبها سفراء الدول وقناصلها ومبعوثوها إلى حكوماتهم بالأرقام (الشفرة) ، وذلك لإخفاء مضمونها عمّن يُحتمل أن تقع في أيديهم من الأعداء أو غير المرغوب فيهم أن يطلعوا عليها من غير الأعداء . فينبغي أن يلمّ دارس التاريخ بالطريقة التي تُمكنه من حلّ رموز هذه الأرقام (الشفرة) ، بواسطة المفتاح الخاص بها ، إن وجد في دار المحفوظات التاريخية أو (الأرشيف) الذي يعمل به . ويوجد بالأرشيف الواحد أكثر من مفتاح واحد بطبيعة الحال وتبعاً للظروف . وتختلف مفاتيح دور الأرشيف من بلد لآخر ، فمفاتيح أرشيف الفاتيكان تخالف مفاتيح دور الأرشيف في فلورنسا أو بيزا أو البندقية أو فيينا أو باريس أو لندن . ولا بد للباحث في التاريخ من الإلمام بحل رموز هذه الدور إذا اقتضت دراسته زيارة تلك البلدان .

وكذلك نجد علم الوثائق أو علم الدبلوماسية (diplomats) من العلوم الأساسية لدراسة التاريخ . والوثائق في المعنى العام تدل على كل الأصول التي تحتوي على معلومات تاريخية دون أن ينحصر ذلك فيما دُوّن منها على الورق . ولكنها في المعنى الدقيق الذي اصطلح عليه الباحثون في التاريخ ، هي الكتابات الرسمية - أو شبه الرسمية - مثل الأوامر والقرارات والمعاهدات والاتفاقيات والمراسلات السياسية ، والكتابات التي تتناول مسائل الاقتصاد أو التجارة ، أو عادات الشعوب أو نظمهم وتقاليدهم وما يصيبهم من قوة أو ضعف ، أو المشروعات أو المقترحات المتنوعة التي تصدر عن المسؤولين في الدولة أو التي تُقدّم إليهم ، أو المذكرات الشخصية أو اليوميات .

فينبغي على دارس التاريخ أن يتعلّم الأسلوب والمصطلحات الخاصة بوثائق العصر الذي يعنيه . ولا بد له من أن يعرف نوع المداد المستعمل في الكتابة وتركيبه ، والأقلام التي كُتِب بها ، وأنواع الورق المستعمل وخصائصه ، مثل العلامات المائية والألياف ، التي تتضح عند تعرّض الورق للضوء . وتُستخدم بعض الوسائل العلمية لفحص الخط والحبر والورق ، فبواسطة بعض العدسات المكبرة الخاصة وبواسطة المجهر يمكن تحديد ضغط القلم وميل الكتابة ، والصفات الخاصة بالكتاب وطريقة كتابته لبعض الحروف ، ولون الحبر . وكذلك يمكن بواسطة المجهر والتحليل

الكيميائي معرفة عمر الورق . وأحياناً يمكن الاستعانة ببعض أنواع الأشعة الحمراء والبنفسجية لإظهار الخطوط غير الواضحة أو المطموسة أو المعْيِرة عمدًا . وكل هذه المعلومات الجوهرية تساعد الباحث على التثبُّت من صحة الوثائق التي تقع تحت يده أو بطلانها * .

ويتصل بدراسة الوثائق دراسة الأختام التي تُسهر بها ، وهي ذات أنواع وأشكال مختلفة . وقد شاع استخدام أختام الشمع منذ أزمان بعيدة ولا تزال مستخدمة حتى اليوم . ووُجِدَت الأختام المعدنية وخاصة من الرصاص ، واستخدمها البابوات والملوك والأمراء بخاصة في أزمنة مختلفة . ووُجِدَت أختام الذهب بخاصة عند ملوك الكاروانجيين في أثناء العصور الوسطى . وظلت تُستخدم عند بعض الأسرات الحاكمة حتى أزمنة حديثة . ولقد تعددت أشكال الأختام بعامة ، فمنها المستدير ، ومنها البيضي . ومنها ما له شكل المثلث أو القلب أو الصليب مثلا . ومعرفة أنواع الأختام تفيد الباحث في التثبُّت من صحة الوثائق التي يقوم بدراستها . ومن العلوم المساعدة في دراسة التاريخ علم الرنوك (heraldry) وهي الشُعْرُ أو العلامات المميزة التي تظهر على الأختام أو الدروع أو على ملابس النبلاء والجنود أو على الأعلام . ولقد عرف القدماء هذه الرنوك أو العلامات المميزة ، وعرفها أهل العصور الوسطى . فعرفها الشرق الإسلامي - مثلا - واستخدمها السلاجقة والأيوبيون والمماليك والعثمانيون . للدلالة على وظائف أرباب السيف . ومن هذه العلامات نجد الكأس والسيف والدواة والنسر والهلل والصليب وذيل الحصان وزهرة الزنبق .

وفي أثناء الحروب الصليبية - مثلا - نجد هذه الرنوك أو العلامات قد نَمَتَتْ وتقدّمت تبعاً للظروف . فلقد استلزم تجمُّع فرق العسكر من شعوب مختلفة التمييز بينهم ، حتى لا يقع الخلط والاضطراب في صفوفهم . وكذلك أصبح للنبلاء والوزراء والقضاة وكبار الموظفين ورجال الكنيسة ووظائف الرهبان ، وبعض المدن ، ونقابات المهن والحرف ، علامات خاصة بها . وأصبحت ذات أهمية كبيرة في حياة المجتمع الإقطاعي في أوروبا في أثناء العصور الوسطى ،

وصارت مرتبطة بأشخاص حاملها ، وذات حقوق قانونية ووراثية .

وإن معرفة الباحث في التاريخ بهذه الرنوك تجعله قادراً على إثبات صحة ما يقع تحت يده من الدروع أو الأسلحة أو الوثائق أو ما شاكل ذلك . وفي الوثائق مثلاً قد يمحى الإمضاء أو التاريخ ، وفي هذه الحال تساعد العلامة الواضحة على الختم – إن وجدت – في التعرف على شيء أو أشياء من حقيقتها .

وعلم النميات أو النومات (numismatics) أى علم النقود والمسكوكات ، من العلوم الهامة في دراسة نواح من التاريخ . فالعملة والأنواط بما تحمله من صور الآلهة وصور الملوك والأمراء وأسمائهم ، وذكرى الحوادث التاريخية ، وسنوات ضربها ، تُقدّم للباحثين مادة تاريخية قيمة بالنسبة للتاريخ القديم وتاريخ العصور الوسطى في الشرق والغرب على السواء . فالعملة اليونانية – مثلاً – تكشف عن كثير من الحقائق في تاريخ الجماعات السياسية التي كانت ذات كيان خاص مكّنتها من أن تسكّ هذه العملة . ولم يُعرف وجود بعض هذه الجماعات إلا عن طريق عملتها التي حفظها التاريخ من الضياع . وتساعد العملة – والمسكوكات بعامة – في دراسة تاريخ الأساطير والعبادات والفنون والعلاقات السياسية ، ونشاط التجارة أو فتورها . وكذلك الحال بالنسبة للعملة والمسكوكات التي صنعتها الحكومات والدول والمقاطعات والمدن والهياكل الدينية أو العلمانية في أنحاء أوروبا في أثناء العصور الوسطى . ونجد مثلاً آثار العملة الصينية في شرقي أفريقية ، وآثار العملة العربية في شمال غربي أوروبا ، وآثار العملات الإيطالية في المشرق ، دليلاً على مدى نشاط التجارة بين هذه الأنحاء المتباعدة من العالم ، في أثناء العصور الوسطى . ونجد مثلاً انتشار الفلورن فلورنسي منذ عصر النهضة ، في أنحاء أوروبا ، وبقاء اسمه مستخدماً حتى اليوم في بعض العملات الأوروبية – كما في الحجر – دليلاً على مدى النفوذ السياسي والاقتصادي الذي تمتعت به فلورنسا في ذلك العصر .

والجغرافيا من العلوم المساعدة لدراسة التاريخ . والارتباط وثيق بين التاريخ والجغرافيا . فالأرض هي المسرح الذي حدثت عليه وقائع التاريخ ، وهي ذات أثر كبير في توجيه مصائر النوع الإنساني . فهي التي أطعمت الإنسان

وأنشأته وعيَّنت واجباته ، وأوجدت المصاعب والعقبات الطبيعية التي تشحذ قريحته للتغلب عليها وللتأثير بدوره في البيئة التي يعيش فيها والعمل على استغلالها .

وللظواهر الجغرافية المختلفة أثر كبير - مع غيرها من المؤثرات - في الإنسان وبالتالي في التاريخ ، وذلك تبعاً لنوع تفاعله مع بيئته ومواجهته لظروفها. فالسهول ، والجبال ، والصحارى ، والوديان ، والأنهار ، والبحار ، والحلجان ، والغابات ، والجزر ، والمناخ ، والرياح ، ونوع الثروة الطبيعية ، والموقع الجغرافي ، تؤثر كلها في تكوين الإنسان ، وتؤثر في لغته ونبرة صوته ، وفي لون بشرته وعينيه وشعره ، وفي أساطيره وأديانه ، وفي ملكاته العقلية ، وفي فكره وفلسفته وصوفيته ، وفي أدبه ، وفي موسيقاه ، وفي هندسته ومعماره ، وفي علمه ، وفي طبه ودوائه ، وفي رتمه وتصويره ونحته ، وفي خلقه وسيكولوجيته ، وفي مدنه وحقوقه وقراه ، وفي قوانينه وشرائعه ، وفي حِرْفه ومهنته ، وفي فقره وغناه ، وفي حياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وفي مذلتة وإبائه ، وفي سير معاركه ، وفي حربه وسلامه .

فيعتقد بعض السكان في المناطق الباردة - مثلاً - أن الجحيم عبارة عن عالم يسوده الظلام الخالك والزمهرير والبرد القارس ، ويعتقد بعض الساكنين في المناطق الدافئة أن الجحيم عالم تغلب عليه الحرارة والنيران المتأججة المستعرة أبداً . ويرتبط - مثلاً - سير المعارك الحربية بالتضاريس الأرضية . فعلى المؤرخ أن يعرف هل كان مركز أحد المتحاربين أفضل من مركز الآخر ، وهل سيطر على منافذ بعض الجبال ؟ أو هل كانت أرض المعركة أرضاً سهلة ، وكان من المسور التحرك فيها ، أم كانت منطقةً مليئةً بالمستنقعات ، أم احتوت على مخابئ وثنيات ؟ وهل كان الجو في يوم أو في أيام المعركة صحواً أم كان عاصفاً مطيراً ، أم كان حاراً قاتظاً ؟

وبما يوضح لنا أثر الجغرافيا في التاريخ ما نلاحظه من تدخلها أحياناً تدخلها حاسماً في تغيير مجرى التاريخ . فمثلاً عاق البحر تقدم تيمورلنك عن العبور إلى أوروبا بعد أن هزم بايزيد الأول في موقعة أنقرة في سنة ١٤٠٢ ، وبذلك لم يتمكن من القضاء على الدولة العثمانية الناشئة ، فاستعادت مكانتها بعد قليل ، منهج البحث التاريخي

وأدت للشرق الأدنى دورها التاريخي في عصر تقدمها وقوتها . وساعدت العواصف والأتواء الأسطول الإنجليزي في التغلب على الأرمادا الأسبانية الضخمة في سنة ١٥٨٨ مما أدى إلى هبوط أسبانيا وارتفاع شأن إنجلترا . وسهول روسيا الشاسعة وشتاؤها القارس كانت عوامل أدت إلى إخفاق حملة نابليون عليها في سنة ١٨١٢ ، وكذلك الحال بالنسبة لزحف جحافل هتلر عليها من بحر البلطيق حتى البحر الأسود في سنة ١٩٤١ .

ولدراسة تاريخ مصر - مثلاً - لا بد من معرفة أحوالها الجغرافية . فالنيل هو مصدر حياة مصر وهي هبته الكبرى . ولقد تركزت حياة المصريين القدماء في هذا الوادي الضيق الخصيب . وعلمهم فيضان النيل المنتظم هندسة الري ، وجعلهم يدركون معنى الوحدة ومعنى التعاون في سبيل تحقيق المصلحة المشتركة . والصحارى المحيطة بوادي النيل نظمت اتصاله بالعالم الخارجي وحددت هجرات الشعوب منه وإليه . وموقع مصر الجغرافي أتاح لها الفرصة لتكوين إمبراطورية عظيمة في عهد تحتمس الثالث .

وكذلك موقع مصر الجغرافي بين الشرق والغرب جعلها تجمع - مع غيرها من دول أوروبا - ثروة طائلة لمرور التجارة العالمية بأراضيها في أثناء العصور الوسطى ، وبفضلها استطاعت أن تشيد حضارة متقدمة ، وأن تقف أمام قوى الغرب في أثناء الحروب الصليبية ، وإن كانت هذه قد انتهت - في هذا الصدد - إلى المزيد من النشاط في تلك التجارة العالمية ، بعد أن وضعت تلك الحروب أوزارها . وحينما تحول طريق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح ، بفضل الكشوف البرتغالية في أواخر القرن الخامس عشر ، وكجزء متمم لحركة النهضة الحديثة ، التي كانت ثورة إنسانية كبرى ، أصيبت مصر - وغيرها من دول أوروبا والبنديقية بخاصة - بضربة قوية ، فهبطت تجارتها ، واختلَّت ماليتها ، واضطرب نظامها السياسي ، حتى لم يقو السلطان الغورى على أن يقف في وجه القوات العثمانية الزاحفة عليه في سنة ١٥١٦ ، وبذلك زالت دولة المماليك من الوجود السياسي في سنة ١٥١٧ . ومع ذلك فإننا نجد أن موقع مصر الجغرافي ذاته قد مهد الفرصة لمحمد علي الوالي العثماني - لا محاولة الاستقلال بمصر فحسب - بل لغزو الدولة العثمانية في أرضها ،

ولمحاولة إقامة إمبراطورية مصرية قوية في النصف الأول من القرن التاسع عشر .
 وللجغرافيا تأثير واضح في التاريخ الإيطالي بعامة في كل العصور . فموقع
 شبه الجزيرة وامتدادها في وسط البحر الأبيض المتوسط ، كان من العوامل الهامة
 التي ساعدت روما القديمة في السيطرة على هذا البحر . وامتدادها الطويل الضيق
 واختراق جبال الأبين لما ساعد على قيام الجمهوريات والمدن الإيطالية المستقلة
 بها في أثناء العصور الوسطى ، بعد أن استقرت أحوالها عقب غارات البرابرة ،
 ونشأ بين أجزائها صراع طويل ، وكان ذلك من العوامل في إذكاء نشاط أهلها ،
 فظهرت بها أجيال من العباقرة في شتى ميادين العلم والفن والأدب ، وكان من
 ثمرة ذلك انبلاج عصر النهضة بها ، الذي يُعدّ بعناصره المتنوعة من غربية وشرقية ،
 من الأسس الهامة في بناء الحضارة الحديثة . وحينما لم توجد من بين أجزاء إيطاليا
 قوة بعينها تستطيع بإمكانياتها وسطوتها أن توحد شبه الجزيرة ، أضحت إيطاليا
 بشمراها ونفائسها العظيمة محطاً لأطماع جيرانها الأقوياء ، حتى صارت تلك
 الأطماع محوراً للسياسة الأوروبية الفرنسية الأسبانية في القرنين الخامس عشر
 والسادس عشر .

وإذا نظرنا إلى جزء معين من إيطاليا نجد البندقية - مثلاً - قد حفظها
 اللاجون من غارات القوط والهون ، فتوفرت لها الفرصة لكي تنشأ وتنمو رويداً
 وبالتدريج . ووقعها على رأس الأدرياتيك وإحاطتها بطرق برية سهلة جعلها
 مركزاً للتجارة العالمية بين الشرق والغرب ، فكسبت - مع دولة المماليك - ثروة
 طائلة ، ونمت وامتدت في الشرق الأدنى في أثناء العصور الوسطى ، ثم تقلصت
 وازمحت - هي ودولة المماليك - حينما تحوّل طريق التجارة العالمية إلى رأس
 الرجاء الصالح ولشبونة ، واضطرت البندقية إلى أن تتجه نحو لشبونة في سبيل
 البقاء .

ووجود صقلية في جنوب إيطاليا وفي وسط البحر الأبيض المتوسط جعلها عرضة
 لغارات ومؤثرات بشرية وحضارية مختلفة ، فتأثرت باليونان والقرطاجنيين والرومان
 والعرب والنورمان والأسبان . وامتزجت بها هذه العناصر المتنوعة المختلفة وتفاعلت ،
 فأصبحت صقلية مغايرةً لسائر أنحاء إيطاليا ، وتطورت بها بذور حضارة

جديدة تجلّت ثمارها في الفكر والعلم والأدب في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، في عهد فردريك الثاني الذي يعدّه بعض الباحثين أول رجل في العصر الحديث . وبذلك ظهرت في صقلية إحدى المراحل الأولى التي أدت إلى بزوغ حضارة عصر النهضة فالعصر الحديث .

ونلاحظ - مثلاً - أن انفصال الجزر البريطانية عن القارة الأوروبية قد حولها من مجرد بقعة نائية في طرف قارة كبيرة ، إلى بلاد مستقلة بذاتها ذات نظم خاصة بها . فوقعها الجغرافي الفريد منع أوروبا من التدخل في شؤونها منذ قرون عديدة ، بعد أن قويت واشتدّ ساعدها . وفي الوقت نفسه جعلها موقعها الجغرافي قادرةً على أن تسيطر على البحار . وتتدخل في الشؤون الأوروبية تبعاً للظروف ، وساعد ذلك على أن يُعْمَلِ عليها سياستها الإمبراطورية الاستعمارية . وتيار الخليج مثلاً جعل مناخ ليقربول أدفاً من مناخ داننرج وهما على خط عرض واحد ، وأصبحت البحار المحيطة بإنجلترا لا تتجمدّ وصالحةً للتجارة طول العام ، بعكس بحر البلطيق . ووجود مناجم الفحم والحديد من أنواع جيدة في مناطق واحدة جعل إنجلترا دولةً صناعيةً عظيمة . واتساع مصب نهر التيمس وعمقه جعل لندن مرفأً تجارياً عظيماً الأهمية .

وهذه كلها أمثلة توضح لنا أهمية الجغرافيا لدارس التاريخ ، وتبين إلى أي مدى يرتبط أحدهما بالآخر . فعلى الباحث في التاريخ أن يعرف الأحوال والعوامل الجغرافية المختلفة التي تحيط بالشعب أو بالعصر أو الناحية التي يدرسها ، على النحو الذي يزيد من إمكانيته في البحث والدرس والفهم .

والاقتصاد من العلوم الأساسية التي يساعد الإلمام بها على دراسة التاريخ ، إذ أن العوامل الاقتصادية ذات أثر فعّال في سير التاريخ . فالثروة الطبيعية في بلد ما تحدّد نوع الإنتاج الزراعي والصناعي ، ونوع التبادل التجاري ومدى نشاطه . وطريقة توزيع الثروة الطبيعية أو الأموال ومدى تركّزها في يد طبقة أو طبقات معينة ، أو مستوى توزيعها بين فئات أكثر عدداً ، يؤثر في السياسة الداخلية لدولة ما ، ويؤثر في نظام الحكم بها . وفي مستوى الرخاء أو الفقر ، وفي حياة الشعب ، وفي علاقة طوائفه ببعضها ببعض ، ويؤثر في مستوى

ال عمران ونهوض الحضارة أو تدهورها ، وتؤثر الظروف الاقتصادية في علاقة الدولة بالعالم الخارجى ، سواء أكان ذلك في الناحية الاقتصادية البحتة ، أم في العلاقات السياسية ، وكذلك تؤثر في مستوى قوتها العسكرية ومركزها في المجتمع الدولى .

ومن الأمثلة على أثر الظروف الاقتصادية في مجرى التاريخ ، ما نلاحظه من أن العامل الاقتصادى كان من بين العوامل الهامة التى أدت إلى اندفاع العرب – عند ظهور الإسلام – من شبه الجزيرة ، التى يغلب على أكثرها الطبيعة المحببة ، إلى سهول العراق الفسيحة وربوع الشام المورقة . ويرجع ثراء الممالك والبنادقة وقوتهم في أثناء العصور الوسطى ، إلى مرور التجارة العالمية بأراضيهم ، وكان تحول طريق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح إيداناً بتدهورهم جميعاً ، كما أشرنا إلى ذلك منذ قليل . ومن الأمثلة في هذا الصدد ما كنا نجده من أن احتياج البندقية إلى قمح الدولة العثمانية ، كان من بين الأسباب التى جعلت البندقية تجنح إلى مسالة السلطان العثماني عند ما كان يهددها بمنع إرسال القمح إلى أراضيها ، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

وكذلك نجد أن الانقلاب الصناعى الذى حدث في أوروبا في القرن الثامن عشر نتيجة للمخترعات الحديثة ، قد أحدث ثورة في النظم الاقتصادية ، مما أملى على دول أوروبا الغربية سياسة التوسع والاستعمار للحصول على المواد الخام ، ولإيجاد أسواق لتصريف المنتجات الصناعية .

ولقد حاول كل من نابليون وإنجلترا استخدام السلاح الاقتصادى ، من بين الوسائل الأخرى ، للقضاء على الآخر ، في ذلك الصراع العنيف الذى نشب بينهما . فكانت حملة نابليون على مصر في أواخر القرن الثامن عشر تهدف فيما تهدف إليه إلى تهديد مركز إنجلترا الاقتصادى في الهند . وكذلك ضرب كل منهما الحصار الاقتصادى على الآخر لكى يحملة على الاستسلام والخضوع .

والظروف الاقتصادية واضحة الأثر في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) وفي الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) ، وفي العلاقات بين الدول الكبرى والصغرى بعضها وبعض ، وهى من الأسباب الرئيسة للمشاكل والاتجاهات المختلفة البادية في شتى أنحاء العالم ، لدى الشعوب والأمم الكبيرة أو الصغيرة ،

العريقة أو الناشئة ، المتقدمة أو الناهضة أو البدائية . وستظل الظروف الاقتصادية عاملاً هاماً في توجيه مصائر الشعوب بل الإنسانية جميعاً ، وقد يؤدي التنافس في سبيلها إلى كوارث وويلات تحل بالبشرية ، كما يمكن أن يؤدي التفاهم والتقدير المتبادل في شأنها إلى أن تسلك البشرية في حياتها سبيلاً معقولاً .

وهذه أمثلة على أهمية الظروف الاقتصادية التي تُعدّ عنصراً أساسياً - ولكنه ليس وحيداً - في فهم وتفسير التاريخ . فينبغي على الباحث في التاريخ أن يُلمّ بتاريخ الحركات الاقتصادية ، ويدرس الأحوال الاقتصادية للعصر أو الناحية التاريخية التي يتناولها بالدراسة ويرغب في الكتابة عنها .

والأدب وثيق الصلة بالتاريخ ، فهو مرآة العصر ، وهو تعبير عن أفكار الإنسان وعواطفه ، وهو يفصح عن دخائل البشر ويصوّر أحلامهم وأمانهم ، ويرسم نواحي مختلفة من حياتهم الواقعة . من حياة الأفراد أو الجماعات ، ومن حياة المدينة أو الريف ، بل ومن النظم ، ومن الحال الاقتصادية ، ومن العلم والفن ، ومن الحرب والسلام ، ومن كل ما يقع تحت حسّ الإنسان ويدخل في نطاق إدراكه أو تصوّره .

فالأدب المصري القديم، مثلاً، على الرغم من قلة ما وصل إلينا من آثاره ، يساعد الباحث في التاريخ على فهم نواح مختلفة من الحياة المصرية القديمة . فالبيئة المصرية بطبيعتها وتقاليدها وأحداثها قد أوحى إلى الكتّاب المصريين القدماء بالتعبير عن مشاعرهم بلغة أدبية مؤثرة . فهم كتبوا عن الآلهة وعن الحياة الآخرة ، وكتبوا في الغزل وصوروا الحب والتمنّع والغيرة والشجن ، وأنطقوا الطير والشجر ، وتغنوا بجمال الطبيعة ، ودعوا إلى التمتع بالحياة قبل فوات الوقت ، ودوتوا قصصاً خيالياً رسموا فيه حياة الأبطال ، ونظموا الأناشيد والأغاني ، وكتبوا في الأدب التعليمي لتهديب الأبناء والتلاميذ . وتركوا آثاراً في فن الحكم والسياسة وفي أحوال المجتمع . كما حملوا على التقاليد ، وأظهروا عقولاً حرةً تدعو إلى التفكير والجدل . فهذه الصور الأدبية كلها تشرح حياة المصريين القدماء في نواح كثيرة ، ولا يمكن لدارس أن يُقبل على بحث تاريخهم دون أن يتذوق أشياء من ثمرات أدبهم ، التي تُعينه على فهم عقليتهم وعاداتهم وحياتهم ، وبذلك

تصبح دراسة تاريخهم أسهل عليه وأيسر .

والباحث في ناحية من التاريخ الإيطالي في القرن الرابع عشر مثلاً ، لا يمكنه أن يفهم موضوع بحثه دون دراسة آثار دانتي الأدبية ° . فهو يصور في كتاباته العواطف الإنسانية ، ويرسم الإنسان الذي يتألم والذي يتعرض للخطيئة ، ويصور القلب المليء بالأسرار ، ويرسم اليأس والأمل ، والغلظة والرقه ، والطغيان والحرية ، والظلم ، والعدالة ، والشقاء ، والسعادة ، والكراهية والحجة . وتشرح آثاره الأدبية مساوئ العصر الذي عاش فيه ، وتبين رغبته وأمله وسائله في إصلاح المجتمع البشري ، بتحريض الناس من أدرانهم ، وبتعليمهم وتهذيبهم وصلبهم ، حتى يكونوا مواطنين صالحين ، ثم بالقضاء على الأحزاب السياسية والمنازعات الداخلية ، وإيجاد إمبراطور عالمي يبسط عدالته ورعايته على أنحاء العالم وينتظم العلاقة بين كل دولة ورعاياها ، وبين الدول بعضها وبعض . وكذلك كان من وسائل إصلاحه للمجتمع البشري ، الدعوة إلى فصل السلطة الإمبراطورية الزمنية عن السلطة البابوية الدينية ، وتألفهما معاً على السير بالعالم في طريق الأمن والسلام والرأفانية ، وهذا هو ما ظل يساور أذهان بعض الفلاسفة والمفكرين والساسة منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر .

فكتابات دانتي المتنوعة تشرح - فيما تناوله - هذه النواحي المختلفة في الحياة الإيطالية في أواخر العصور الوسطى ، وتمهد لعصر النهضة فالعصر الحديث ، والإلمام بها شيء ضروري لتناول كل ناحية من تاريخ ذلك الزمان ، ولا نبالغ إذا قلنا إن الإلمام بأشياء من آثار دانتي الأدبية أمر ضروري لدراسة كل ناحية في التاريخ أو المجتمع الإيطالي حتى الوقت الحاضر .

° دانتي أليجييري (١٢٦٥ - ١٣٢١) (Dante Alighieri) أحد عظماء الشعراء في العام ويمد واحداً من العباقرة الأربعين أو الخمسين الأوائل في تاريخ البشرية . عاش حياة متأرجحة وتعرض لأهواء السياسة الحزبية وقاسى من حياة المنى . وامتاز برهافة الحس وصدق القول ودقة التعبير . وأعظم آثاره الأدبية هي « الكوميديا » التي سميت فيما بعد بالإلهية . وهي ثلاثة أقسام الجحيم والمطهر والفردوس . وقد استمدتها من عناصر وثقافات متنوعة من القديم والحديث ، ومن الشرق والغرب والجنوب ، ومن الأسطورة والتاريخ والسياسة والعلم والدين واللاهوت والفلسفة والطبيعة والمجتمع والفن ، كما استمدتها من ذاته . ومع أن العالم الآخر هو مسرح الكوميديا فهي تعج بصور الدنيا والحياة على الأرض . وقد استوحى منها بعض أهل الفنون التشكيلية والموسيقية عناصر في إنتاجهم الفني . وقد أراد دانتي بكتابتها أن يعوض عما ناله في حياته من العسف ونكران الجميل ، وأن يقم عالماً يسوده الحق والعدل والصفاء والحرية والسلام .

والقياس صحيح بالنسبة لضرورة الأدب العربي لدراسة موضوع ما من التاريخ العربي، أو بالنسبة لأهمية الأدب الإنجليزي لفهم التاريخ الإنجليزي، وهكذا. ودراسة الأدب بصفة عامة توسع عقل الإنسان وتصلق نفسه وتجعله أقدر على الفهم والاستيعاب. ولا بد للراغب في كتابة التاريخ من أن يتذوق الشعر لكي يفهم ملكة الخلق والابتكار. ويلزمه أن يقرأ شيئاً من القصص الأدبي لكي يتعلم فن عرض الموضوع، وإبراز الحوادث الهامة، وبحث الشخصيات الأساسية والثانوية، ووضع التفاصيل والحزيبات في المكان الملائم، وإحكام الإطار العام للموضوع الذي يدرسه، وإثارة انتباه القارئ، وجعله قادراً على استيعاب ما يقدم إليه وتذوقه. ويحسن بدارس التاريخ كذلك أن يلم بشيء من مذاهب النقد الأدبي، إذ أن دراسة حياة الأدباء، وتحليل آثارهم وتذوقها، ونقدها من ناحية اللفظ والموضوع والمعنى تقدم للمؤرخ ذخيرة قيمة تُعينه في دراسته التاريخية. والإلمام بنواحٍ من فنون الرسم والتصوير والنحت والعمارة الخاصة بعصر ما، تساعد كذلك على فهم تاريخه. وهذه الفنون - كالأثار الأدبية - مرآة للعصر. فهذه الفنون في مصر القديمة، أو في آشور، أو في الهند أو في الصين، أو في اليونان، أو في إيطاليا أو في فرنسا، تعكس جميعها صوراً دقيقة من حضارات تلك البلاد، وتبين كثيراً من خفايا أهلها ومن حياتهم الواقعة ومن تقاليدهم ونظمهم وأحلامهم وأمانهم.

فمن يرغب في دراسة ناحية من تاريخ عصر النهضة في إيطاليا - مثلاً - يلزمه أن يعرف شيئاً من الفنون التشكيلية في أواخر العصور الوسطى ثم في عصر النهضة ذاته. وإن آثار تشيخا بوي^(١) وجوتو^(٢) في فن التصوير لتوضح كيف

(١) جوفاني تشيخا بوي (١٢٤٠ - ١٣٠٢ Giovanni Cimabue) المصور الإيطالي الذي يعد من رواد الفن الحديث، وربما كان معسماً لجوتو. وقد شرع في الخروج على تقاليد الفن البيزنطي من حيث محاولته التعبير عن شيء من مكونات النفس الإنسانية، من طريق سمة الرؤوس وشكل الأعين ولامح الوجوه، التي بدأ يظهر غيب شيء من التفاوت التدريجي. ومن أعماله صورة «القديس يوحنا» في كاتدرائية پيزا و«صور الفريسكو في كنيسة لنديس فرنتسكو العليا» في أسيسي، وتنسب إليه صورتان «للعذراء وتطفل والملائكة» في متحف الأوفيزي في فلورنسا وفي متحف اللوفر في باريس.

(٢) أمير ودجو دي بوندوني المعروف بجوتو (حوالي ١٢٦٦-١٣٣٧ Ambrogio di Bondone detto Giotto) المصور الإيطالي الذي يعد أب فن الحديث. مضى في الخروج على تقليد الفن الوسيط، وتبدو على وحوه وأعيه علام التفكير، وأعطى صوره عنصر البساطة والندرام وحقق فيه شيئاً من العمق. ومن آثاره «مشاهد من حياة يعقوب وأنا وندراء ماري» ومن «حياة المسيح وآلامه» في كنيسة الأري في =

عبّر مصورو العصر عن محاولة الخروج على روح العصور الوسطى ، والسعى إلى التجديد والابتكار في التعبير عن شيء من مكونات النفس البشرية ، من طريق ما يبدو في حركة الأعين وسمه الوجوه ، ذلك المكون الذي لم تكن روح العصور الوسطى تستسيغ أو تقوى على الإفصاح عنه ، باعتباره شيئاً من أسرار الله . وبالتدرّج أخذ أهل الفنون - من رجال فن التصوير أو فن النحت - مثل بوتشلي^(١) ، وليوناردو دا فنشي^(٢) ، ورافاييلو^(٣) ، وميكلائنجلو^(٤) - أخذوا

= يادوا . ورسم «صوراً من حياة القديس فرنسيسكو» في الكنيسة العليا في أسيسى . ومن صورته أو من صور تلاميذه «صورة داني» في شبابه في متحف البارجلو في فلورنسا . وشرع في إقامة «برج الناكوس لكاتدرائية فلورنسا» . وقد اضمحل أثره الفني في أواخر القرن ١٤ ولكنه عاد إلى الظهور في فن مازاتشو وميكلائنجلو .

(١) ساندرو بوتشلي (حوالي ١٤٤٥ - ١٥١٠ . Sandro Botticelli) ربما كان أكثر مصوري عصر النهضة شاعرية ويمتاز فنه بالرقة واستيحاء الطبيعة والأساطير والإنسان ، وخطوطه مليئة بالحركة والحياة وعنصر الدراما . وعمل في فلورنسا في زمن آل مديشي . ومن آثاره «صورة الربيع» و «صورة ميلاد فينوس» في متحف الأوفيتزي في فلورنسا . وله صور في كنيسة سكوتوس في الفاتيكان ، واستوحى من كوميديا دانتى رسوماً أصولها موجودة في الفاتيكان ، وهي منشورة في بعض طبعات الكوميديا أو بعض ترجماتها .

(٢) ليوناردو دا فنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩ . Leonardo da Vinci) من أعظم رجال الفن في العالم . ولد في فنشي بالقرب من إيمبولى . وهو ابن غير شرعي . تعلم على فيروكيو في فلورنسا . وامتاز بتعدد ملكاته واتساع ثقافته . برع في الطبيعة والميكانيكا وفي تصميم آلات الحرب والهندسة والجسور والقلاع والأسوار وفي الجغرافيا والتشريح والموسيقى والشعر والنحت والتصوير . وكان هادئ الطبع قوى العضلات جميل الهيئة . وكان أشبه بإله بين البشر ، ولم يعشق النساء ، ولم يبن قلاعه الضخمة على قلب المرأة المتغير ، وأحب الناس جميعاً كأبنائه . ويمتاز فنه بالعمق والبناء الهندسي والرقة والجمال والتعبير عن مكونات النفس الإنسانية . ومن آثاره نسختان من «عذراء الصخور» إحداهما في متحف اللوفر في باريس والأخرى في المتحف الوطني في لندن ، وصورة «العشاء الأخير» في كنيسة سانتا ماريا دلي جراتزي في ميلانو ، و «مونا ليزا» أو «الجوكوندا» في متحف اللوفر في باريس . وقضى سنواته الأخيرة في قلعة كلوبقرب مقر فرنسا الأول في أمبواز على نهر اللوار .

(٣) رافاييلو سانزيو (١٤٨٣ - ١٥٢٠ . Raffaello Sanzio) من أعظم رجال التصوير في العالم . ولد في أوربينو . وعلى الرغم من أنه نشأ في الريف ولم يلق مالمقيه ميكلائنجلو من الرعاية في صباه فقد بلغ فنه مستوى معاصريه ليوناردو دا فنشي وميكلائنجلو . درس في فيروكيو ودرس في مرسيم البيرودجينو وفي مرسيم پيتوريكيو . وكان جميل الصورة رقيق الحاشية وامتاز فنه بالرقة واللطف . ثم نما فنه وتأثر بليوناردو وميكلائنجلو . وكان غزير الإنتاج . ومن آثاره صورة «صلب المسيح» في المتحف الوطني في لندن و «تتويج العذراء» في متحف الفاتيكان و «زواج العذراء» في متحف بريرا في ميلانو و «عذراء الجرانديق» في متحف بيتي في فلورنسا و «سان جورج والتمنين» في المتحف الوطني في واشنطن و «بارناسوس» و «الديسپوتا» و «مدرسة أثينا» و «خلاص القديس بطرس من السجن» و «لقاء ليو الأول وأتيلا» و «النار في البورجو» وهذه كلها في متحف الفاتيكان . و «جوليو الثاني» في متحف الأوفيتزي في فلورنسا و «ليو العاشر» في متحف بيتي في فلورنسا و «التجلى» في متحف الفاتيكان .

(٤) ميكلائنجلو بوناروتي (١٤٧٥ - ١٥٦٤ . Michelangelo Buonarroti) من أعظم رجال =

يستوحون تراث الأقدمين في الشرق والغرب ، كما استوحوا زمانهم وبيئاتهم ، واستلهموا مكنونات نفوسهم وما انطوت عليه جوانحهم ، ورسوموا المنظور والعمق ، وصوروا المادة ، واستخدموا الأشكال الهندسية ، ورسوموا رؤى الطبيعة الساحرة ، وشرحوها الجسد ، واعتبروه هيكلًا للروح : وصار لكل جزء فيه عندهم مبنى ومعنى ، وأصبح كل خط من خطوطه وكل وضع أو لفظة أو حركة أو نظرة منه موضوعًا للتأمل والدرس والاستلهام . وبذلك تخلَّصوا من قيود الزمن السابق عليهم وأوضاعه ، وعبروا عن خفايا النفس البشرية ، وانطلقوا في آفاق من الحرية والخلق والإبداع ، وقدّموا لإيطاليا وللعالم روايتهم الخالدة .

وإن الإلمام بشيء من فن العمارة القوطية ، في فرنسا - مثلاً - في أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، لأمرٌ ضروريٌّ لِمَن يريد أن يدرس ناحية من تاريخها في ذلك الزمان . فلقد قدم هذان القرنان نماذج رائعة من فن العمارة القوطية مُمثلاً في تلك الكاتدرائيات العظيمة التي انبثقت في كثير من الأنحاء ، ونشأت كثمرة لما سبقها من النمو التدريجي الروحي والعقلي والفني ، منذ العصر القديم حتى زمانها . وقد تفانى الجميع ، من أغنياء وفقراء ، ومن رجال دين وملوك وأمراء ورجال أعمال وأصحاب حرف وعمّال ، في بذل أموالهم وجهودهم المتنوعة جيلاً من بعد جيل ، في صمت وصبر وجلد ودأب ، يحدوهم إيمان عظيم .

= النحت والتصوير في العالم إن لم يكن أعظمهم . ولد في كاهريزي في الأراضي الفلورنسية . التحق بمدرسة جيرلاندايو ودرس آثار جوتو ومازاتشو واختاره لورنتزو العظيم للإقامة في قصره حيث اعتنى برتولودو تلميذ دوناتيلو بتدريبه الفني . حفظ ميكلائنجلو على الأقل أجزاء من كوميديا دانتي عن ظهر قلب ، ومزج في فنه بين آراء الأفلاطونية المحدثة وتعاليم سافونارولا وروح دانتي . وكل الآراء والأمانى والمحن التي أحاطت بفلورنسا وروما ، وكل ما أحسه في عزلة السامية ، أعطى فنه طابعاً من الألم والقوة والرقّة والجمال والسمو في آن واحد ، واكتشف لغة الجسد ، وكان يسمى بميكلائنجلو الإلهي . وكان يحس الغيرة من ليوناردو دا فنشي ومع ذلك فقد اكتسب منه مزيداً من الحيوية في رسم الحركة وفي التعبير عن مكنون النفس . ومن صورته « الأسرة المقدسة » في متحف الأوفيزي في فلورنسا ، و « صور السقف في كنيسة سستو » و « صورة الحكم الأخير » وهي في كنيسة سستو ، و « صلب القديس بطرس » و « هداية القديس بولس » وهما في قبة كنيسة القديس بطرس . ومن آثاره في فن النحت « باخوس » في متحف البارجلو في فلورنسا ، و « البيتا » في كنيسة القديس بطرس ، و « داود » في متحف الأكاديمية في فلورنسا ، و « الأسيران » في متحف اللوفر في باريس ، و « عذراء بروج » في كنيسة نوتردام في بروج في بلجيكا ، و « موسى » في كنيسة سان فيتو وإن فنكولي في روما ، و « الليل » و « النهار » على قبر جوليانو دي مديشي ، و « الفجر » و « المساء » على قبر لورنتزو دي مديشي في فلورنسا . ومن آثاره في فن المعمار « قبة كنيسة القديس بطرس » . وله شعر رقيق . ومات في روما ، وأعيد دفنه في كنيسة سانتا كروتشي في فلورنسا .

وظهرت الكاتدرائيات العظيمة فسيحة الأرجاء ، مُدبَّبة الخطوط والأقواس ،
تغمرها أطيايف من النور الممتزج بألوان رسومها على ألواح نوافذها الزجاجية العالية ،
وبدت خفيفة ، متوثبة ، شائخة ، منطلقة ، نزاعةً إلى أجواز الفضاء اللانهائي .
وعلى أبواب الكاتدرائيات وحوائها وأعمدتها ونوافذها وأبراجها وفي جوتها ، شهد
أهل العصر براعم جديدة تنفتح معبرةً عن بزوغ ربيع مزدهر جديد . وسمعوا
ألحاناً تأخذ بمجامع قلوبهم وتسمو بهم إلى أعلى عليين ، وقرأوا فصولاً من
الكتاب المقدس ، ومن حياة الأنبياء والبطارقة والقديسين ، ومن حياتهم الفكرية
واليومية . وأصبحت الكاتدرائية تمثل عنصراً جوهرياً في حياة الناس وفكرهم وفي
ديانهم ودينهم . وكان الناس يأتون إليها ويذهبون جيلاً في إثر جيل ، بينما تظل
هي شائخة صامدة على الزمان أبداً .

وبذلك نجد الكاتدرائية القوطية تعبر أصدق التعبير عن روح العصر الذي
آذن بميلاد حضارة جديدة ، أخذت تخلص رويداً رويداً من آراء الفكر
المدرسي ، ويتجه فيها النظام الإقطاعي إلى أن يُسلم زمام الأمور بالترجيح إلى
المدن النامية الجديدة ، وإلى الروح القوي الوطني الجديد . وكذلك تفسر الكاتدرائية
القوطية عناصر جوهرية في بناء الحضارة الأوروبية الحديثة النزاعة إلى الآفاق
اللانهاية أبداً * .

وكيف يمكن لِمَنْ يرغب في دراسة ناحية من تاريخ عصر النهضة في إيطاليا
بخاصة ، أو من تاريخ إيطاليا بعامة أو ناحية من تاريخ فرنسا مثلاً - كيف
يمكنه أن يستوعب ما يدرسه منها ويدرك دخالها ، دون أن يكون ذا حظ مناسب
من هذه الثقافة الفنية التشكيلية أو المعمارية ؟ لقد أدركت الجامعات ومعاهد العلم

* من الأمثلة على الكاتدرائيات القوطية في فرنسا نجد كاتدرائية نوتردام في شارتر على مقربة من
جنوب غربي باريس ، وأُنشئت خلال قترات من النصف الأول من القرن ١١ إلى النصف الأول من القرن
١٣ ، وظلت تدخل عليها إضافات وتحسينات خلال القرون ١٦ و ١٧ و ١٨ . وكذلك كاتدرائية
نوتردام في رانز على مقربة من شمال شرق باريس ، وبدئ في إنشائها في أوائل القرن ١٣ واكتملت في
أوائل القرن ١٤ وظلت تدخل عليها إضافات وتحسينات في ذلك القرن . وقد أصيبت بأضرار بالغة في أثناء
الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) ولكن أعيد ترميمها وإصلاحها . وكذلك نجد كاتدرائية
نوتردام في باريس القائمة في جزيرة السيتيه وسط نهر السين ، وأُنشئت منذ أواخر القرن ١٢ واستكمل بناؤها
بفنونها وتحفه في منتصف القرن ١٤ ، وأدخل عليها شيء من الإضافة والإصلاح في القرن ١٩ ، وتعد
الكاتدرائية الرئيسة في فرنسا .

في كثير من أنحاء العالم المتحضر أهمية هذه الناحية ، فأدخلت هذا النوع من الثقافة الفنية - من حيث هي ثقافة فحسب - في مناهج الدراسة في كليات الآداب بها . إلى حدّ إنشاء الكراسي الخاصة بالأساتذة في بعض الكليات . والمقصود بذلك أن تخدم هذه الثقافة الفنية سائر الدراسات الأدبية أو الإنسانية أو العلمية ، والتي من بينها دراسة التاريخ ، فضلاً عما في هذه الثقافة في حدّ ذاتها من السعى إلى السمو بالروح وتهذيب النفس . ويجمل القول هو أن دراسة شيء من فنون الرسم والتصوير والنحت والعمارة لعصرٍ ما ، يُساعد على دراسة تاريخه والكتابة عنه .

والحال على هذا المنوال بالنسبة لفنون الموسيقى وما يرتبط بها من فنون المسرح والرقص ، التي تُعدّ كذلك من المرايا الصادقة التي تعكس أو تكشف عن كثير من الوقائع والحقائق الخاصة بعصور التاريخ ، والتي لا تكفي الكتابات التاريخية أو الوصفية أو الأدبية في التعبير عنها . فمنّ يرغب في دراسة ناحية من تاريخ العصور الوسطى ، يحسن به أن يلمّ بأشياء عن الألحان الجريجورية الكنسية التي تصوّر إيمان الناس وشكواهم مما حلّ بهم من اضطراب الحياة في جزء كبير من قرونها المتتابعة ، وابتهاهم إلى الله أن يرفع عنهم ما نزل بهم من المحن ، كما توضّح تفاني بعض رهبانهم في محبة الله والبشر^(١) . وكذلك يجمل به أن يعرف أشياء عن الألحان الشعبية - ذات النغمة الواحدة - أي المونوفونية - التي كانت تصدح بها آلات شعراء التروبادور ، المتأثرة بألحان شعوب المشرق حتى بلاد الهند ، والتي كان أولئك الشعراء يؤدونها أحياناً مصحوبةً بحركات الرقص الجماعي الدائري أو المتقابل وأحياناً مصحوبةً بالغناء ، والتي لا يزال المدرّس والمحفوظ والمسجّل منها يُنبئ^(٢) عن أوجه الشبه والتأثير المتبادل بين تراث الشرق والغرب^(٢) . وكذلك ينبغي عليه أن يدرك شيئاً عن النموّ الموسيقي المتدرّج

(١) الألحان الجريجورية (Gregorian Chants) مجموعة كبيرة من ألحان الموسيقى الدينية ترجع إلى أصول قديمة وثنية وعبرية ووسطية ، ويرجع أساس نموها إلى صدق الرهبان وإخلاصهم وإحساسهم بحال العالم في العصور الوسطى وتطلّعهم إلى عالم أفضل في الدنيا والآخرة ، بتمجيد الرب والتقرب إليه ، وبالنفان في محبة الله والبشر . وعنى المختصون بدراستها وتسجيلها في القرن الحالى .

(٢) موسيقى التروبادور (Troubadour) هي موسيقى الشعراء المبتكرين من الأمراء والنبلاء والفرسان ومن الشعراء الطوائف الذين ظهروا في البروفنس في جنوبي فرنسا من أواخر القرن ١١ إلى أواخر =

يظهر الألحان المسماة بالألحان، البوليفونية، المتعددة في درجات الأداء، المفارقة المتقابلة المتجاوبة الصاعدة الهابطة المتآلفة، التي اتضحت في التوزيعات الموسيقية المتنوعة، والتي استطاعت بالتدرّج أن تعبّر عن كثير مما يعتمل في نفوس البشر من المعاني، وما يقع تحت حسّهم من المشاهد. ويحسن به أن يتذوّق أشياء من فنون مسرح الديني أو المشاهد التمثيلية التي كانت تُقام في ذلك الزمان^(١).

وإن تذوّق طرفٍ من موسيقى العصر المسمى بما قبل الرومنسي في مجال الفن والأدب في القرنين السابع عشر والثامن عشر، والتي تبلورت في روائع الألحان التي ألفها أمثال بالسترينا^(٢)، أو مونتفيردي^(٣)، أو فيفالدي^(٤)، أو باخ^(٥)،

= القرن ١٣. وهم متأثرون بفن الأندلس والمشرق. وبقي شيء من ألحانهم التي درست وبجّلت في أوروبا، ويوضح الاستماع إليها مدى العلاقة بين ألحانهم وألحان المشرق حتى الوقت الحاضر، وإن كان العالم الغربي قد تطورت موسيقاه ونمت منذ ذلك الزمن حتى الآن، بناء على الدراسة والثقافة ورهافة الحس وحسن الذوق والإخلاص والعبقرية.

(١) يتضح هذا بدراسة بعض المشاهد الدينية المعاصرة مثل الفصول التي كانت تستوحى من الكتاب المقدس مثل «تمثيلية دانبايل» أو «تمثيلية آدم» أو بعض ما كان يقام في الأعياد الدينية، وما كان يشتمل عليه من التزمم والإنشاد والحوار باللهجات العامية، وما تضمنه ذلك كله من العنصر الدرامي أمام القدر، وما احتوى عليه أحياناً من ألحان التروبادور وأغانيم، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

(٢) جوفاني بيرلويجي دا بالسترينا (١٥٢٥ - ١٥٩٤ . Giovanni Pierluigi da Palestrina) من أعلام الموسيقى الدينية في إيطاليا ولد في بالسترينا بقرب روما ومات في روما. عمل في خدمة الكنيسة وهضم وبلور كل ما حققته الموسيقى الدينية في القرن ١٦، وله ترانيم وقداصات كثيرة وسمى بأمرير الموسيقى. وكان قساً في فترة من حياته.

(٣) اكلاديو مونتفيردي (١٥٦٧ - ١٦٤٣ . Claudio Monteverdi) موسيقى إيطالي ولد في كريمونا وارتحل في إيطاليا وسافر إلى الفلاندر والجر ومات في البندقية. اشتهر في ميدان الأوبرا ومن مؤلفاته «أورفيو» و«عودة أوليسيس» وله ترانيم دينية. وكان قساً.

(٤) أنتونيو فيفالدي (١٦٨٥ - ١٧٤١ . Antonio Vivaldi) موسيقى إيطالي عظيم فيما قبل العصر الرومنسي. ولد في البندقية وارتحل في إيطاليا وسافر إلى هولندا والنمسا ومات في فيينا. وضع أكثر من ٢٥٠ كوزشيرتو ومنها ما هو للكان أو الفلوت أو التنتلو كما وضع قداصات دينية وأوبرات، وقد تأثر به باخ إلى حد أنه نسخ وأعاد كتابة بعض ألحانه للهاربسكورد. وتراوح موسيقاه بين الرقة والهدوء والسرعة والهجة والأسى والشجن والصوفية. وعاش أغلب وقته في البندقية مشرفاً على ملجأ للفتيات اللقيطات اللاتي كان يجعل منهن عازفات ماهرات للموسيقى. وكان يطلق عليه لقب القسيس الأحمر بسبب لون شعره. وقد ذاع صيته في بلاده وفي أوروبا في أثناء حياته، ولكن أهملت موسيقاه بعد وفاته، وربما قبيل ذلك، وظل مجهولاً حتى استرد باخ شهرته، وعندئذ كشف فن هذا الفنان العظيم.

(٥) جان سيباستيان باخ (١٦٨٥ - ١٧٥٠ . Johann Sebastian Bach) الموسيقى الألماني الشامخ فيما قبل العصر الرومنسي ولد في أيزيناخ وارتحل في ألمانيا ومات في ليبزج. وضع كثيراً من الألحان الدينية والدنيوية. وفي موسيقاه رقة وعذوبة وحنين وإبهال وصوفية وتجريد. ومن أشهر ما ألفه «آلام المسيح بحسب رواية القديس متى». وله سوناتات وكوزشيرتوات ومتابعات وفوجات وقداصات =

أو هيندل^(١) ، والتي تتضمن أحياناً علوية أو أحياناً تصف الطبيعة ، أو أحياناً دينية تعبّر عن عذاب البشرية وخلاصها ، أو أحياناً تعبّر عن نواح من خفايا النفس البشرية - يساعد بلا ريب في جعل المتذوق أقدر على فهم روح هذين القرنين ، وأقوى على الكتابة في الموضوع التاريخي الذي يقع اختياره عليه منهما بخاصة ، أو في دراسة التاريخ والكتابة عنه بعامه .

وبعض موسيقى بيتهوفن - مثلاً - تعبّر عن ثورته أو حملته على طغيان نابليون على أوروبا ، في مطالع القرن التاسع عشر ، وعلى الأخص سيمفونيته الثالثة المسماة بالبطولة ، التي تُعدّ نقداً موسيقياً عارماً لطغيان الفرد ، لم يكده يفهمه أحد في زمانه^(٢) . وموسيقى فيردى في بعض أوبراته - مثلاً - تُعدّ كذلك حملةً صادقةً على الطغاة وانتصاراً لدعاة الحرية في إيطاليا - بل في أوروبا والعالم - في أثناء القرن التاسع عشر^(٣) . وإن المتذوق لأشياء من فنهما يصبح دون شك

= للالات الوترية والفلوت والأورغن. وتزوج مرتين وأنجب عشرين ولداً وبتناً، وكف بصره في آخر عمره . وأهل أمره بعد حوالي القرن من وفاته ، ومن مكتشفه فيلكس مندلسون في القرن التاسع عشر .

(١٠) جورج فريدريك هيندل (١٦٨٥ - ١٧٥٩ . George Frederic Haendel) الموسيق الألماني الشامخ فيما قبل العصر الروماني . وكان مولده في هال . وهو ابن رجل مارس الحلاقة والجراحة ، وولد لأبيه بعد أن تجاوز الستين وبعد أن تزوج من امرأة شابة عقب نجاته من مرض كاد يودي بحياته . درس القانون إزاء إصرار أبيه ولكنه اتجه إلى الموسيقى . وارتحل إلى إيطاليا . وانتقل إلى إنجلترا حيث اكتسب الجنسية الإنجليزية في عهد جورج الأول الألماني الأصل . وحينما أراد الزواج اشترطت عليه أسرة فتاته أن يترك الموسيقى التي كانت عندهم مهنة غير مشرفة ، فلم يتزوج سوى الموسيقى . وتمتاز موسيقاه بالرقّة والمذوبة والضحامة ويعنصر الصوفية والدراما . وكتب كونشرتوات وسوناتات ومتابعات للالات الوترية والفلوت والأورغن . وله ألحان دينية مثل « المسيح » و « البعث » و « سليمان » . ووضع أوبرات مثل « بربنس » و « يوليوس قيصر » و « أورلاندو » وكف بصره في أواخر حياته . ومات في لندن .

(٢) لودفيج فان بيتهوفن (١٧٧٠ - ١٨٢٧ . Ludwig Van Beethoven) يعده بعض النقاد أعظم الموسيقيين طراً . ولد في بون وهو ألماني من أصل هولندي وقضى أغلب عمره في فيينا . كان حاد المزاج معتداً بنفسه . وكان أول من رفع مقام رجال الموسيقى من مجرد الأتباع في قصور الملوك والأمراء إلى مقام رجال الفن المحترمين . وتعطش إلى الحب دائماً ولكنه لم يظفر به أبداً . وعانى من ضعف السمع حتى فقدته تماماً في السنوات الخمس الأخيرة من حياته . وتمتاز موسيقاه بعناصر من القوة والضحامة والرقّة والمذوبة ، وفيها الطموح والسمو والبهجة والسعادة والأسى والشجن والصوفية على السواء . وهو المعبر بموسيقاه عن عصر الاستنارة والحرية وكان يكره الاستبداد في شتى صورته . ومن أعماله الرباعيات الوترية والسوناتات والكونشرتوات والسيمفونيات التسع وأوبرا « فيدليو » و « القدامس الكبير » . وودعه إلى مقبره الأخير ٢٠٠٠٠ نسمة من أهل فيينا .

(٣) جوسيبي فيردى (١٨١٣ - ١٩٠١ . Giuseppe Verdi) مؤلف الأوبرات الإيطالي الشهير ولد في الرونكولي ومات في ميلانو . ومن آثاره « ماكبث » و « عطيل » و « فالستاف » و « ريجوليتو » و « التروفاتورى » و « الترافياتا » و « قوة القدر » ووضع « أوبرا عايدة » بناء على =

أقدر على فهم روح القرن التاسع عشر ، وما ساد من الصراع بين التقدم والرجعية وبين الطغيان والحرية ، وبذلك تصبح دراسته والكتابة عن أية ناحية من تاريخه أقرب إلى الواقع والحقيقة التاريخية .

وكما رأينا في فنون الرسم والتصوير والنحت والعمارة ، نجد أن كثيراً من الجامعات ومعاهد العلم في أنحاء العالم المتحضر ، قد أدركت أهمية الثقافة الفنية الموسيقية ، فجعلتها من بين مناهج الدراسة في كليات الآداب بها ، إلى حد إنشاء الكراسي الخاصة بالأساتذة . بل وتوجد في كثير من جامعات الغرب فرق موسيقية مكونة من المهويين من الأساتذة والطلاب ، اللذين يقومون معاً بعزف روائع الموسيقى الكلاسيكية ، في جو من التفاهم والتآلف والمحبة . والمقصود بهذا أن تخدم هذه الثقافة الفنية سائر الدراسات الأدبية أو الإنسانية أو العلمية ، والتي من بينها دراسة التاريخ ، فضلاً عما في هذه الثقافة الفنية الموسيقية في حد ذاتها من العمل على تهذيب النفس والسمو بالروح .

ومن النواحي الهامة لِمَنْ يرغب في دراسة التاريخ وكتابته ، أن يعرف صورة عامة عما عرفه العالم عن التاريخ . فينبغي عليه أن يقرأ مختارات من بعض آثار المؤرخين السابقين القدماء منهم والمحدثين ، مثل هيرودوت^(١) ، وتوسيديد^(٢) ، وليفي^(٣) ،

= طلب الحديديو إسماعيل بمناسبة انتحار قناة السويس في ١٨٦٩ ، ومثلت في القاهرة في ١٨٧١ . وتعتبر بعض مؤلفاته عن الروح الوطنية الناهضة للدفاع عن الحرية ، واعتبر رمزاً للوطنية الإيطالية في القرن التاسع عشر ، وكثيراً ما كان يصطدم بالرقابة على المؤلفات الموسيقية . وتزوج مرتين وأصبح عضواً في البرلمان الإيطالي بعض الوقت .

(١) هيرودوت (حوالي ٤٨٠ ق . م . - حوالي ٤٢٥ ق . م . Herodotus) يعرف بأبي التاريخ وهو من مواليد هاليكارناسوس في آسيا الصغرى . قام برحلات كثيرة منها أسفاره إلى اليونان وجنوبي إيطاليا ومصر وبابل ، ووضع كتابه في التاريخ الذي سجل فيه ما رآه وما سمعه وما قرأ عنه ، ويمتاز بملكة النقد والتحرى بقدر ما كان ذلك مستطاعاً في زمنه .

(٢) توسيديد (حوالي ٤٦٠ ق . م . - حوالي ٤٠٠ ق . م . Thucydides) هو المؤرخ الأثيني . واشتغل بالهندية فكان أحد القواد في الحرب بين أثينا واسبرطة ، وحينما أخفق في هزيمة براسيدياس ولم يستطع أن يخلص أمفيبوليس تقرر نفيه فعاش في المنفى ٢٠ سنة ثم عث عنه . وضع كتاباً عن الحرب البلوپونيزية ، ويعد من أهم المؤلفات التاريخية ، ومع أنه كان يميل إلى تركيزه فقد امتاز بالعدالة على وجه العموم ، ويمتاز بأسلوبه المركز البياني وبطريقته العلمية من حيث التحري والربط بين الحوادث .

(٣) ليفي (٥٩ ق . م . - ١٧ م . Titus Livius) ولد في بادوا وعاش في روما . كرس حياته للأعمال التاريخية والأدبية فألف كتاباً في تاريخ روما . وعلى الرغم من تفضيله النظام الجمهوري فقد كان من المقربين إلى أغسطس قيصر . ووضع كتابه لتمجيد روما وبيان الأسباب التي أصابت إمبراطوريتها بالاضطراب في القرن الأول قبل الميلاد . واعتبر الأساطير معبرة عن طبيعة الشعب الروماني وروحه . وطريقته ليست علمية أو نقدية بالموازنة بتوسيديد ولكن كتابته حية وأسلوبه واضح بليغ .

وماكيافلي (١) ، وفيكو (٢) ، وجيبون (٣) ، وميشليه (٤) ، وراينكه (٥) ،

(١) نيقولا ماكيافلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧ . Niccolò Machiavelli) هو السياسي والمؤرخ الفلورنسي من مواليد فلورنسا . عاش في زمن ساڤونارولا وآل مديشي وشغل بعض الوظائف في حكومة فلورنسا وقام بسفارات دبلوماسية في إيطاليا وفي فرنسا وأثيروا . وفقد وظيفته بطرد آل مديشي من الحكم وعانى من الحرمان . ووضع كتاب « الأمير » الذي استمدته من ظروف إيطاليا المضطربة ، وهو عبارة عن آراء ونصائح للحاكم لكي يخرج بإيطاليا من الفوضى إلى حياة الاستقرار والسلام . وأصبح اسمه مقروناً بالغدر والخداع لبلوغ المآرب ، ولكن هذا لا يتفق مع حقيقة آرائه إذ أنه دعا إلى اتباع كافة الوسائل، حتى المتأفة لقواعد الأخلاق والدين، ليس لبلوغ الغايات بل لبلوغ الغايات النبيلة فحسب ، والتي تهدف إلى مصلحة الدولة ، وإن كان هذا لا يمكن تطبيقه عملياً ، وما أندر أن يعترف أحد من الحكام أو من رجال السياسة بأنه كان له غايات شريرة . ودعا إلى تركيز السلطة في يد الحاكم القوي في فترة مؤقتة تنهى إلى الحياة الديمقراطية الحرة القائمة على الانتخاب العام ، لأن اشتراك الرؤوس الحرة في تدبير شؤون الدولة هو الوسيلة الوحيدة لصالح المجتمع . ومن مؤلفاته كتاب في « تاريخ فلورنسا » وقد نظر فيه إلى فلورنسا ككائن حي وحاول أن يحلل عوامل الخلاف الداخلي وأثرها على السياسة الخارجية ، وعمل على إيجاد حل لمشكلات السياسة بدراسة أحداث التاريخ . وماكيافلي آراء في الاقتصاد وفي الدين وفي فن الحرب . وكتب رواية « ماندراجولا » التي تعد سابقة على بعض ما كتبه موليير في القرن السابع عشر . ونثر ماكيافلي واضح بسيط مركز ويعد أسلوبه مرحلة هامة في نمو اللغة الإيطالية . وعلى الرغم من أن أغلب ما كتبه يدل على أنه كان رجلاً رزيناً مترناً لا يبدو على وجهه أثر الانفعال ، فقد كان في الحقيقة رجلاً مهرف الحس عميق الشعور ، وتأم كثيراً لانحراف ابنه وفساده . ونجده مثلاً في آخر كتاب الأمير يتكلم بحماسة عن إيطاليا التي لا رأس لها . وكتب أيضاً شعراً ربما لا يعرفه الكثيرون ولكنه يفيض بالإحساس مثل :

إني أوئل والأمل يزيد من عذابي ،

وأبكي والبكاء يغدى قلبي المكدود ،

وأحترق ولكن احتراق مختلف تحت سطح رقيق .

(٢) جوفاني باتيستا فيكو (١٦٦٨ - ١٧٤٤ . Giovanni Battista Vico) الفقيه والفيلسوف والمؤرخ الإيطالي . ولد في نابلي وعلم في جامعتها . أهم مؤلفاته « أسس علم جديد حول الطبيعة العامة للشعوب » و « القانون العالمي » . درس العلاقة بين تاريخ القانون وتطور العقل . وتاريخ البشرية عنده يتمثل في سلسلة من عمليات التقدم التي تدرجت في أدوار متتابة من الإلهي إلى البطولي إلى البشري ، وتتضح آثار ذلك في نوع الحكومة وخصائص اللغة والأدب والتشريع ومشخصات الحضارة على وجه العموم .

(٣) إدوارد جيبون (١٧٣٧ - ١٧٩٤ . Edward Gibbon) المؤرخ الإنجليزي . انتقل بين إنجلترا وسويسرا وزار فرنسا في زمن دلامير وديدرو كما زار إيطاليا . نشأ محباً للدراس والقراءة ووضع كتابه الشهير عن « انحلال وسقوط الدولة الرومانية » ويمتاز بأسلوبه الأدبي وبالذقة والتحرى في استخلاص الحقائق التاريخية على وجه العموم ، وإن كان قد وقع في أخطاء وتعميمات غير صحيحة ، كشفت عن حقائقها البحوث التالية على زمنه ، وذلك في الجزء من كتابه الذي يغطي الحوادث من ٤٦١ إلى ٤٥٣ .

(٤) جول ميشليه (١٧٩٨ - ١٨٧٤ . Jules Michlet) المؤرخ الفرنسي . علم التاريخ في الكوليج دي فرانس . ومن مؤلفاته « تاريخ فرنسا » و « تاريخ الثورة الفرنسية » . ويمتاز بنجاحه في بعث الماضي في صورة جذابة وإن كان يعد غير محايد في كتابته . وتسببت أفكاره الحرة في تعطيل محاضراته بعض الوقت . وله أعمال أدبية تمتاز بأسلوبها الوجداني مثل « الجبل » و « العصفور » .

(٥) ليوبولد فون رانكه (١٧٩٥ - ١٨٨٦ . Leopold Von Ranke) المؤرخ الألماني . ولد في ثورينجيا . درس الكلاسيات واللاهوت في هال وبرلين . وعلم في جامعة برلين . قام بأبحاث في دور لأرشيف في إيطاليا . كان من مؤيدي مترنيخ ولذلك فقد كرهه الأحرار . ومن مؤلفاته « تاريخ الملكيين العثمانية والأسبانية » و « ثورة الصرب » و « البابوية الرومانية ، تاريخها ودولتها في القرنين ١٦ و ١٧ . =

والطبرى^(١) وابن خلدون^(٢)... وعليه أن يقرأ شيئاً من المؤلفات الحديثة في تاريخ العالم بعامة ، ثم يتزود بالقراءة عن العصر أو الناحية التي يرغب في تناولها بخاصة . وبذلك يلمّ بثقافة تاريخية عامة وخاصة ، كما يعرف الطرق المختلفة التي اتبعها المؤرخون في كتاباتهم ، ويتبين خصائصهم ومزاياهم وعيوبهم ، ويفيد بكل هذا فوائد عظيمة النفع . ولا يُعقل أن يعكف دارسٌ ما على دراسة ناحية تاريخية معينة فجأةً وتوّاً ، ودون أن يعرف موضع هذه الناحية من الدائرة المحيطة بها مباشرة ، ثم موضعها من الدوائر الأوسع نطاقاً ، بل وموضعها من العالم كله ، ولا يتأتى هذا بغير الإلمام بقدر مناسب من الثقافة التاريخية العامة والخاصة على السواء .

= ويعد من أوائل المؤرخين الملمين العلمي الحديث . وامتاز كأستاذ ومعلم ومدرّب للطلاب على البحث العلمي . وحاول ألا يتأثر بموامل التحيز الفكرية أو السياسية أو الدينية في سبيل الوصول إلى الحقيقة التاريخية بقدر المستطاع .

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢٢٥ - ٥٣١٠ هـ . أى ٨٣٨ - ٩٢٢ م .) ولد في آمل من أعمال الري . قام برحلات عديدة إلى مصر والعراق والحجاز والشام ، واستقر في بغداد . وهب حياته للعلم وحده ولم يتول وظيفة ولم يتقرب إلى سلطان وكان رجلاً حر الفكر ورمزاً على العلم والرجولة والخلق الكريم ، وكان إنساناً في معاملة الناس حسن العشرة عارفاً بأداب السلوك ، ولم يعرف التزمت ، وكان يداعب أصحابه بالفكاهة اللطيفة . ودرس الطبرى علوم العصر كالحدّث والقرآن والتفسير واللغة والشعر والرياضيات والطب . ومن مؤلفاته « جامع البيان في تفسير القرآن » ، وهو ليس تفسيراً فحسب بل موسوعة شاملة للعلوم الإسلامية حتى زمانه . وكتب تاريخ العالم المسمى « تاريخ الرسل والملوك وأخبارهم » . واتبع الطبرى في تاريخه طريقة بحثه في الحدّث والتفسير من حيث إثبات الأسانيد المتعددة حتى مصدرها الأول مع ذكر الروايات المختلفة في شأن الخبر الواحد . والتاريخ عنده تاريخ الهداية البشرية . وأورد معلومات قيمة عن تاريخ الفرس القديم ، ولكن معلوماته عن قدماء المصريين واليونان والرومان قليلة ، ولم يوف تاريخ الغرب الإسلامي حقه من البحث . وأعظم أجزاء تاريخه قدراً هي الخاصة بالعصر الأموي والعصر العباسي الأول . ومع أنه كان معاصراً لأحداث القرن الثالث الهجري فلم يؤرخ لها بل آثر السكوت عن الكثير . وللطبرى الفضل في أن جعل التاريخ علماً ثابت الأصول والمنهج مستقلاً بنفسه عن الحدّث والتفسير . ويعد عميد مؤرّخي الإسلام .

(٢) ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ . أى ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م .) ولد في تونس حيث درس بها . اشتغل بخدمة الدولة . وارتحل مسافراً حيناً كما قام بعدة سفارات في آسيا وأفريقيا والتي يقيمور لنك في دمشق . اشتهر بـ « مقدمة » كتابه المسمى « العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » . وهو من رواد فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع . يحمل التجربة أساس العلم بالعالم وليست الفلسفة القائمة على أسامس المنطق ، ويقصد بالتجربة تجربة البشرية كلها ، وفائدة المنطق هي رسم الطريق إلى صحة الاستدلال . ويذكر ما يتعرض له المؤرخ من المغالط والأوهام ، ويدعو إلى دراسة التاريخ على أساس ربط العلة بالمعلول . وموضوع التاريخ عنده هو الحياة الاجتماعية بكل مظاهرها من أفعال ومنازعات وحكومات وعلوم وصناعات ، ويتكلم عن نشوء الحضارة وأزدها وتدهورها وزوالها وعن ظهور شعب جديد يحل مكان الشعب المنهار . ولكنه لم يطبق ما دعا إليه عند وضع كتابه المشار إليه . وتوفى بالقاهرة .

منهج البحث التاريخي

ومن المفيد أيضاً أن يلمّ الباحث في « التاريخ » بطائفة أخرى من العلوم المساعدة . فيلزمه أن يدرس شيئاً من المنطق الذي يفيد في بنائه التاريخي . وكذلك يفيد الإلمام بتقسيم العلوم في أن يفهم موضع التاريخ من سائر العلوم . كما ينبغي عليه أن يدرس أشياء من فلسفة التاريخ وآراء المفكرين فيه مثل اشبنجلر^(١) ، وبرجسون^(٢) ، وكروتشي^(٣) ، وكولنجوود^(٤) . وهو في حاجة كذلك إلى أن يعرف أشياء من علم الآثار ، ومن علم الأجناس ومن علم الاجتماع ، ومن علم النفس ، ومن القانون ، ومن النظريات السياسية ، ومن علم الإحصاء ، ومن الرياضة

(١) أوزفند اشبنجلر (Oswald Spengler . ١٩٣٦ - ١٨٨٠) الفيلسوف الألماني . جمع بين دراسة الرياضة والتاريخ الطبيعي والفن والتاريخ . وضع كتابه عن « انحلال الغرب » . وهو يقول بأن معرفة التاريخ هي معرفة نظرية وجدانية وبأنه على المؤرخ أن يتوسم من خلال الآثار والأخبار والأرقام روح الحضارة . ويرى قيام تشابه بين دورات الحضارة من حيث النشأة والنمو والنضج والشيخوخة والفساد . وهو يتعسف حيناً يقول بإمكاننا استنؤ يقينياً بمستقبل الحضارة بناء على دراسة الحاضر . ويتعسف كذلك حيناً يعتبر الحياة والتاريخ قائمين على من يتميزون بالإرادة والعزيمة والقوة دون أهل العلم والفكر والمثل العليا ، إذ أن الحياة والتاريخ قائمان على أكتاف هؤلاء جميعاً .

(٢) هنري برجسون (Henri Bergson . ١٩٤١ - ١٨٥٩) الفيلسوف الفرنسي . درس في باريس وعم في لسيه هنري نرايع وفي مدرسة النورمال (المعلمين) وفي الكوليج دي فرانس . وحصل على جائزة نوبل في الآداب في سنة ١٩٢٧ . وتقوم فلسفته على دوام الإنسان واستمراره وعلى تطوره ونموه . والحياة عنده سلسة واحدة من الأفعال يتكون منها التاريخ ، وهو يؤمن بالغاثة العامة التي تنظم الحياة كلها وتشملها برابط واحد لا يتقسم . ومن مؤلفاته « التطور الخلاق » و « إمكانية التغيير » و « أطاقه الروحانية » ويمتاز أسلوبه بالوضوح والرشاقة والإيجاز وحسن التلويح .

(٣) بنيدتو كروتشي (Benedetto Croce . ١٩٥٢ - ١٨٦٦) ولد بقرب نابلي واشتغل بالتاريخ والفلسفة . شغل منصب وزير التعليم بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية . وكان رجلاً حر الفكر ومن معارضي النظام الفاشي . ومن كتاباته « شعر دائي » و « التاريخ كفكر وكفعل » و « نظرية وتاريخ كتابة التاريخ » . تدرج في تفكيره التاريخي ، فن آرائه أن الفلسفة تعبر عن المفاهيم المجردة لتاريخ ، وبذلك تصبح عصباً في بناء التاريخ . ومن آرائه أيضاً أنه لا بد من توفر البصيرة التاريخية للمؤرخ ، وأن التاريخ ينبغي أن يدرس بوسائله الخاصة القائمة على جمع المصادر وبقدها وتفسيرها . ويحذر المؤرخ من المبالغة في تخيل الماضي وتمصص شخصيته ، ومن التحيز للزعمات الوطنية أو السياسية أو الاقتصادية أو الدينية . . . إذ لا بد للمؤرخ من ألا يتجاوز في تخيله وإحيائه الماضي حدود الوثائق والمصادر التي يستخلص منها الوقائع والحقائق التاريخية .

(٤) روبين جورج كولنجوود (Robin George Collingwood . ١٩٤٣ - ١٨٨٩) . درس في أكسفورد . وهو حجة في حريات بريطانيا وتاريخها في عصر الروماني وهو فيلسوف كذلك . من مؤلفاته « فكرة الطبيعة » و « أصول الفن » و « فكرة التاريخ » . ومن آرائه أن عمليات التاريخ تنظم أعمالاً لها زواياها انداحية التي تتألف من عمليات فكرية ، وأن كل تاريخ ما هو إلا تاريخ للفكر ، وأن مهمة المؤرخ عرض الأحداث التي هي المظهر الخارجي للأفكار . ويعد أنه الخيال التاريخي مرجعه إلى المؤرخ الذي لا يقبل الرواية إلا إذا اتسقت مع مقياسه العقلي ، وأن المؤرخ سيد نفسه ، وأنه في الوقت الذي يكتشف فيه حريته كمؤرخ سيكتشف أيضاً حرية الإرادة الإنسانية بوصفها القوة الفعالة في أحداث التاريخ .

أو الفلك أو النبات أو الحيوان . . . إذا ما عرضت له نواحٍ من هذه المسائل .
وإذا لم يكن له بها معرفة سابقة فيمكنه تحصيل القدر الذى يكفيه منها لفهم
الموضوع التاريخى الذى يعالجه ، حينما يصبح فى حاجة إلى ذلك .

ومن الضرورى للباحث فى التاريخ ألا يكتفى بتحصيل ثقافته العامة أو الخاصة
من الكتب والمراجع فحسب ، دون دراسته وخبرته بالحياة العملية ذاتها ، سواء
أكان ذلك فى دائرة أهله وعشيرته ، أم كان فى نطاق قومه وبلده ، أم فى محيط
دوائر أوسع وأعم فى المجتمع الإنسانى . وإن الخبرة التى يكتسبها الباحث بالملاحظة
والممارسة العملية ، بحسب ظروفه ، من شأنها أن تجعله أقدر على فهم أعمال
الإنسان فى الزمن الماضى ، وتقدير الظروف التى أحاطت به ، التى أدت إلى
اتخاذ مسالك معينة فى مواجهة تيارات أو مؤثرات محددة . ولا يجوز لدارس
التاريخ أن يكون فى عزلة عن البشر ، حتى يصبح أقرب إلى فهمهم والكتابة
عنهم ، مهما بعدَ بينه وبينهم الزمان ، إذ أن الرابطة البشرية قائمة على الرغم
من اختلاف الزمان والمكان .

ومن الأمور الأساسية للباحث فى التاريخ ألا يلتزم حدود بلده ، بل ينبغى
عليه السفر والارتحال داخل بلاده وخارجها ، فى سبيل البحث التاريخى فى حد
ذاته ، ثم لكى يرى آفاقاً جديدةً ، ويكتسب خبرةً بأقوام وبيئات مختلفة .
ومن الضرورى له أن يقضى فترةً أو فترات متعددة فى البلد الذى يدرس نواحى
من تاريخه . ولعله يكون من المناسب أن يبدأ الباحث سفره بعد أن ينهى تعليمه
الجامعى فى بلده الأسمى ، وبعد أن تتعين له الناحية التى يرغب فى الكتابة
عنها ، فيسافر وقد تزود بأسلحة نافعة ، ويمضى فى الدرس والكشف عن الوقائع
والحقائق التاريخية . ويزور الأماكن المختلفة ويدرس ويتأمل ، ولكن عليه ألا
يكون كالمُحدث الذى تبهره الأضواء الجديدة . والنفس العالية لا تشعر أنها
غريبة فى أى مكان ، إذ تحسّ الصلة والرابطة بينها وبين وطنها وبين شتى
البلدان وسائر النفوس والأقوام والحضارات . ولا بد للباحث فى التاريخ - كغيره من
أهل الدراسات الأدبية أو العلمية أو الفنية - لا بد له من متابعة أسفاره فى الداخل
والخارج طوال حياته ، لأن ذلك يجدد ثقافته ويزيده علمًا وتجربةً على الدوام .

وفي أغلب الأحوال لا يمكن كتابة البحوث العلمية الأصيلة دون الارتحال والسفر ، والعدول أو التوقف عن السفر يعوق عجلة التقدم ، ويوقف سير العلم ، ويصيب الأفراد والأمم التي ينتمون إليها بالركود والجمود والتأخر . ولقد كان أسلافنا من العرب في عهد مجدهم ، كما كان أضرابهم من أهل زمانهم ، يجوبون الآفاق في عصر الدابة والشرع ، طلباً للعلم . ولقد ازداد نشاط الأسفار في طلب العلم في عصر الآلات الحديثة ، في الأمم المتحضرة والناهضة والكبيرة والصغيرة على السواء ، إذ أن ذلك من أسباب تقدم الشعوب ونهوض العمران .

هذا كله موجز عن الثقافة والإعداد والخبرة اللازمة لمن يتصدى لكتابة التاريخ . وليس المقصود بذلك التوسع أو التعمق في كل هذه النواحي لذاتها ، إذ أن هذا أمر فوق متناول البشر . ولكن المقصود أن ينال الدارس ما يلزمه بقراءة بعض الكتب العامة أو الخاصة ، وقد يزيد ذلك في نواحٍ معينة من هذه العلوم المساعدة بحسب طبيعة الموضوع الذي يختاره . وقد يبدو من العسير جمع هذه الثقافة المتنوعة . ولكن تخصيص حوالى سبع أو ثماني سنوات تفعل العجائب ، وتكفي للوصول إلى مستوى مناسب يزداد بالتدريج مع الزمن تبعاً لنوع الدراسة . وإن روح العلم الصحيح لا تعرف العقبات ، والإخلاص والصبر يبلغان بالباحث في التاريخ - كما في سائر العلوم - إلى غرضه في أغلب الأحيان .